خاتمة

١

طلع فجر الشعر العربى – كما أوردنا من قبل – بظهور شعراء يصدرون فى الطبيعة عن أنفسهم ، ويصورون مشاعرهم ، ويأخذون بحظ مذكور من معنى الغناء فى الطبيعة ، وتظهر عناصر الصدق والبساطة والحب والجمال فى شعرهم . وظهر هذا فى شعر امرئ القيس ومعاصريه : المهلهل وعلقمة وعبيد ، كما ظهر فى شعر الصعاليك أو العدائين ..

ثم أعقبتهم جماعة ساروا على سنن سابقيهم ، ولزموا الخطوط التى رسمها أسلافهم للطبيعة ، مع أخذ بنصيب من الطرافة فى الفكرة والأسلوب . وهذا شأن شعراء الجاهلية الذين تلوا سابقيهم ..

وخلف من بعد هؤلاء خلف عاشوا فى عالم غيرهم ، وجمدوا فى الاتباع ، تمشياً مع النزعات الاجتماعية والسياسية والوطنية التى تتجه نحو الماضى ، وتتعلق بمعانيه . وتمثل هذا فى الشعر الإسلامى الأول ..

ولم يلبث أن قام بعض الشعراء يعملون ، مبالغة فى الجمود ، لإحياء الماضى الطبيعى ، ويرجعون إلى السلف فى إيمان وتعصب ، ويضفون على نزعاتهم ألوان البهرج ومختلف الزينات ، ويمتثلون الماضى الشعرى امتثالا ، ويؤدونه أداءا بارعاً .

لكن تطور الحياة قد أجبر من تلوا هؤلاء على التفكير فى أنفسهم ، وعلى تصوير الحياة المحيطة بهم فى أوضاعها الجديدة . فقامت الشام تحمل علم التجديد فى شعر الطبيعة ، ثم شاركتها فى حمل اللواء مصر ، وخطت الأندلس نحو الكمال خطوة . أما المشرق فقد اكتفى بترديد الصدى ، والسير فى أعقاب السابقين .

ولم يكن ذلك كله وليد الصدفة . وإنما كان متفقاً مع سنة الحياة التى تساير ماتقضى به النواميس الكونية والأسباب الواقعة وإن استبهمت بعض الأمور على الباحث ، فنشأ ذلك

قصور العلم البشرى ، بحاله الراهنة ، عن الإحاطة بجميع الأسباب والعلل فى عالم تقادم ماضيه وكثر خافى حاضره .

ومن أروع مظاهر شعر الطبيعة عند العرب فى بيئتهم المحدودة ، أن الشاعر القديم كان يقصد الوصف الطبيعى لذاته لا تبعاً لغيره ؛ وأن الجاهلى كان فى وقوفه بالأطلال وتصويره لها لا يعنى دار الحبيبة وحدها ، وإنما يقصد البيئة بما فيها من سهل ورمل وجبل وحيوان وغيرها ؛ وأنه كان يقصد ، بما يعرضه من نماذج طبيعية مختلفة فى القصيدة الواحدة ، إلى وصف الصحراء بأعلامها وموجوداتها المتنوعة ؛ وأنه قد ظفر من التصوير الفنى المطابق للحال بأوفر نصيب ؛ وأن المدح والتقليد قد تأخرا بشعر الطبيعة ؛ وأن شعر الطبيعة فى دور النهضة عنى بالطبيعة الصامتة أكثر مما عنى الشعر القديم ؛ وأن الفن الحضرى كان وثيق الصلة بتطور شعر الطبيعة .

وقد عرف العرب التصوير الهادئ للطبيعة ، كما عرفوا التصوير المليء بالحركة والنشاط ، وصوروا أشكال الطبيعة كما صوروا أحوالها ، وأخذوا بحظ من معانى الاندماج فيها والفلسفة لها ، واتخاذ العبرة والموعظة منها ، وربطوا بين الطبيعة والخمر والطرب ، كما تغنوا بالحب فى ظلالها .

وقد ظهر صدى كثير من نغماتهم فى شعر الطبيعة الأوربى ، وبخاصة الربط بين الطبيعة والحب ، ورد بعض الباحثين الغربيين الصدى إلى مصدره القريب الأندلسى .

لكن هذا لا يعنى أن الفن العربى يشبه الفن الغربى تمام الشبه . فهذا يخالف طبيعة الأشياء ؛ والبيئات الغربية التى خضعت لمؤثرات متشابهة ، تتصل بالماضى والحاضر والمصادر والمثل العليا ، يتميز فن كل منها عن الآخر تميزاً .

٢

وقد يطول الحديث إذا تقصينا ألوان الفرق بين شعر الطبيعة فى العربية وبينه فى اللغات الأجنبية ، لكننا نشير إلى الخطوط الكبيرة فى إيجاز :

وأولها – أن هذا الفن العربى ، وإن كان له عصر نهض فيه واتسعت موضوعاته ، ظل وثيق الصلة بالماضى يتطور بقدر ، ويأخذ منه كل عصر بحظ . أما شعر الطبيعة الغربى ، فكان بمعناه الكامل انقلاباً فى العمل الأدبى من ناحية الفكرة والأسلوب ، وتبديلا فى المقاييس والمثل العليا

الفنية ، ومسايرة لحركات كبرى فى الفلسفة والاجتماع والسياسة مر الحديث عنها .

وثانيها – أن شعر الطبيعة العربى تأثر فى دور نهضته بعمل الحضارة الممثل فى الحدائق والأحواض والمتنزهات المقامة بالمدن الكبرى ، وزاوج بين الطبيعة والفن . أما الشعر الغربى فقد عنى بالريف فى بساطته الخالصة ، وقصد إلى تنسم الحرية فيه ، والنجاء من أسر المدينة ومجتمعها وحياتها الصاخبة ؛ وكأنما كان يسخر من أولئك الذين جذبهم بهرج المدينة وثراؤها الصناعى ، فهجروا الريف الجميل وازدروه .

وثالثها – عناية الشعر العربى بالطبيعة الهادئة ، ممثلة فى النهر والزهر والنبات والقمر والنجوم والربيع ، أكثر من عنايته بالطبيعة العنيفة ممثلة فى البحر الهائج ، والريح الصرصر ، والشتاء القارس ، والركام الجليدى ، والظلام المطبق .

ورابعها – شدة الوضوح فى شعر الطبيعة الغربى لتصور الطبيعة وحدة ؛ يثير المظهر سائر مظاهرها فى نفس الشاعر ، ويبعث المعنى سائر المعانى . وقد وجدنا حظًّا من هذا التصور فى الشعر العربى ، لكنه قد استوى على نحو تام عند الغربيين . وكان الشعر العربى فى دوره الأول أشد أخذاً بهذا المعنى منه فى الأدوار الأخرى ؛ إذ كان البدوى يتصور فى الأطلال البيئة بمرتفعاتها وسهولها ورياحها وأمطارها ونباتها وحيوانها ، ويعرض صور البادية فى تتابع لا يشوبه سوى ما قد يظهر فيه من معنى التجزئ .

وخامسها – ظهور العناية الوصفية أو تصوير الشكل فى الشعر العربى . فالشاعر ، وإن وصف الحال ، يعنى عناية بالهيئة والأعضاء والأجزاء . وكانت هذه العناية من معانى الجمال ودلائل الفتنة فى الشعر الجاهلى ؛ إذكان الشاعر يعبر عن شدة تعلقه بفرسه أو ناقته بالإمعان فى وصف أجزائها وحركاتها . أما الشاعر الغربى فإنه يعنى بتصوير الحال وفلسفة الموضوع قبل كل شىء ، ولا تظهر عنده العناية بالشكل .

وسادسها – تمام معنى الفناء فى الطبيعة عند الغربيين . أما العرب فقد بدأ هذا المعنى قويًّا عندهم فى الجاهلية ، ثم تضاءل بتضاؤل معنى الصدق فى العاطفة ، وإن ظفر منه بعض الشعراء المتأخرين بحظ مذكور .

وسابعها – اتساع الأفق عند الشعراء الغربيين فى نظرتهم إلى الطبيعة ، واتخاذها موضوعاً فكريًّا عالياً . فمنظر البحيرة أو النهر أو الجبل يثير فى نفس الشاعر معانى الزمان والمكان والماضى والحاضر ووحدة الكون والأبدية والخلود ؛ فيستخرج منها فلسفة ، وينتهى إلى أفكار وتصورات

سامية . أما الشعر العربى ، وخاصة مابعد الجاهلى ، فإنه يهيم بمحاسن الطبيعة وألوانها الفاتنة ، ويتصورها فى العموم مادة من مواد الطرب ، ومجلى للزينة ، ومعرضاً للحسن ، ولا يأخذ بنصيب كبير من اعتبارها موضوعاً للتأمل ، ومادة للتفكر والتبصر .

٣

هذه هى الخطوط الكبيرة التى تميز الشعر الغربى عن الشعر العربى فى الطبيعة ؛ يتبينها القارئ لآثارهما الأدبية . ولست فى حاجة إلى إيراد الأمثلة العربية ، فحديثها يطول وقد أوردنا فى الفصول السابقة كثيراً منها . أما الشعر الغربى فمن الخير عرض بعض أمثلته .

فوردزورث حين يقف بنهرواى : Wye بعد متاع قديم بالحب والطبيعة فى جواره ، يتجه إليه فى جو نفسى مظلم ، وفكر ثائر ، وقلب مضطرب تسرع بضرباته آلام الحياة ، ويقابل بين متاعه القديم بالطبيعة أيام الشباب وحاله الحاضرة ، ويصور كيف يعيش بذكريات الماضى وبآمال المستقبل ، ويتغنى بحبه للطبيعة ، بجبالها وشلالاتها ورياحها وكل ما فيها .

ثم يحلل معانى فتنته القديمة بالطبيعة تحليلا فلسفيًّا فيقول :

«كانت الطبيعة تستولى على حسى ؛ لأنى لم أنظر إليها بعين الشباب العابث ، وإنما كنت أكثر الإصغاء لموسيقى الخليقة الحزينة السرمدية ، فأحس إحساساً سامياً بمعان مبهمة لا سبيل إلى تحديدها ، تنبعث من ضوء الشمس فى الغرب والبحر المحيط والهواء المنعش والسماء الزرقاء ، وتستقر فى وعى الإنسان . روح تنساب فى جميع مواد الفكر ، وحركة تتخلل الأشياء كلها . ولهذا أحتفظ بحبى للأعشاب والغابات والجبال ولكل ما فى هذه الأرض الخضراء ، وهذا العالم الجبار ، مما تبصره العين أو تسمعه الأذن» .

ويختم الحديث بهذه الكلمة الجامعة الدالة على مدى اتصاله بالطبيعة وسلطانها عليه : «وإنى لسعيد أن أتيين فى الطبيعة لغة الشعور ، ومحرك أفكارى النقية ، والمربى ، والمرشد ، والحارس لقلبى ، والقوام لعقلى» .

وتثير قمم الجبال ، بما يكللها من السحب والجليد ، فى نفس بيرون معانى العظمة وتكاليفها ، وواجب العظماء فيقول :

«من يرتفع إلى قمم الجبال يجد ذراها مكللة بالسحب والجليد .

«ومن يعلو الناس ويبسط سلطانه عليهم ، يجب أن يترفع عن بغضاء الأدْنَين .

«ومن يرقى إلى شمس المجد ويبعد عن الأرض ومحيطها الممدود – يحوطه الركام الجليدى . وتصطخب العواصف العاتية حول رأسه العارى .

«وهذه عاقبة الأعمال الكبيرة تؤدى بأصحابها إلى هذه المواطن» .

ويحن إلى بحيرة ليمان حنيناً ، وينسى فى مائها آلام العالم فيقول :

«أى ليمان الصافية المطمئنة ! لقد لجأت إلى بحيرتك التى تقابل العالم المضطرب ، وإنها لشىء يدعونى بهدوئه إلى نسيان الدنيا الهائجة فى ينبوعه النقى . إن الشراع الهادئ لجناح ساكن يسبح بى بعيداً عن القلق . ولقد أحببت مرة زمجرة المحيط ، ولكن صوتك الخافت الناعم يحلو وقعه فى أذنى ، كأنما هو صوت أختى تسخر من أن تستخفنى أقوى الملذات ! » .

فالشاعر تفتنه زمجرة المحيط ، كما يستهويه صوت البحيرة الناعم . وإذا تحدث فى القطعة السابقة عن معان رقيقة ، فإنه فى هذا المقام أيضاً لا ينسى التحدث عن الظلام يخيم على ما بين البحيرة والجبل ، وتختلط معانى الإبهام والوضوح فيه ، وعن تغير موسيقى الكون ، وعن قوة الطبيعة الهائلة ممثلة فى الليل والعاصفة والظلام ، وعن تعلقه بهذه القوة ، وعن مقاسمته الليل وحشته ، وعن فنائه فى العاصفة .

وشلى حين ينظر إلى القمر لا يتعلق بصره باللون والهيئة البرّاقين ؛ وإنما يراه شاحباً منهوك القوى ، يتسلق السماء ، ويطيل التحديق فى الأرض ، ويعيش غريباً فى عالم النجوم ، ويمعن فى التغير والتحول كأنما هو عين قلقة لا تجد شيئاً يستحق استقرارها .

وكولردج لا يعنى بألوان البلبل وصورته حين يتحدث عنه ، وإنما يقول نحو قوله :

«إنه البلبل الطروب . تتزاحم نغماته العذبة ، وتسرع وتتهور فى شدوه القوى الممتلئ ؛ كأنما يخشى أن تقصر ليلة من ليالى أبريل عن أن يغنى أنشودة حبه ، وأن يفرغ كل ما فى فؤاده الزاخر بالموسيقى» .

ولا مارتين يبدأ تأملاته الشعرية : «Meditations poétiques» بأنه كثيراً ما يجلس فوق المرتفع ، فى ظل شجرة البلوط العتيقة . عند غروب الشمس ؛ يتأمل فى عمق ، ويجيل بصره فى السهل ، ويرقب الطبيعة المتغيرة ، ويصغى لهدير النهر الصاخب ، وينفعل لكل ذلك .

وفى هذه التأملات يقف بالبحيرة التى طالما جلس وحبيبته إيلفير :Elvire يمتعان النفس بجوارها ، ويتبادلان أحاديث الهوى . فقد كانا على موعد بالالتقاء عندها ، لكنها لم تأت ، ثم

توفيت بعد ثلاثة أشهر دون أن يتلاقيا . ويبدأ الوقفة متسائلا :

« أنظل دائماً فى رحلة لا إياب بعدها ، مندفعين نحو شواطئ جديدة فى ليل سرمدى ؟ ! ألا تقف سفينتنا ، وإن يوماً واحداً ، أثناء رحلتها فوق أوقيانوس الزمن ؟ ! »

ثم يتحدث عن صخب البحيرة ، ومجلسه مع الحبيبة على إحدى صخورها ، وطلبه إلى الزمن ان يتوقف عن السير ، وإلى الليل أن يتمهل حين شرع الفجر فى هتك ستاره ، وإلى الحبيب أن ينتهز المتاع فالعيش خلس . ويأسى على ما فات ، وينادى الزمن الحقود ، ويتمنى أن تعود الساعات الجميلة الماضية ؛ فليس يستحيل على من أبدعها أن يعيدها . لكنه لا يلبث أن يرجع إلى الحقيقة ، فيذكر الأزلية ، والماضى وهوته السحيقة التى تبتلع الأيام فوها ، وينادى الصخور الصماء ، والكهوف ، والغابة المظلمة التى أبقى عليها الزمن ، وينتهى بأن يطلب إلى البحيرة ذات الطبيعة المشرقة أن تحتفظ لحبه بالذكرى ، ويتوسل لهذا الرجاء بقوله :

« فى دعتك ، وصخبك ، وضفافك الباسمة ، وأشجارك ، وصخورك الموحشة المتدلية إلى حافة الماء — جمال وروعة . وفى النسمات العابرة ، وخرير الماء حول ضفافك ، وتألق النجم المنعكس ضوؤه على صفحة لجينك — صفاء هادى . ولينطق الريح والغصن المتنهد ، ولتنبعث من عبير جوك المعطار زفرة تقول : هام العاشقان ! ! » .

٤

تقييم وإنصاف :

فنحن فى هذه الأوصاف الطبيعية نطالع فلسفة عميقة وروحاً عالية ، وأفكاراً سامية ، وشعوراً صادقاً ، وفناء فى الطبيعة ، وتصوراً تامًّا لها . ولا نحس بالأوصاف الشكلية واللونية التى تعنى بظاهرها ، وقد تغشّى مكنون جمالها ، وروائع أسرارها .

ولكن ، هل يعنى هذا أن الشعر العربى ، لعصوره الكبرى ، قد وقف دون اللحاق بغيره ، أو تأخر حين تقدم سواه ؟

كلا ! لقد بيّنا أن شعر الطبيعة عند العرب قد أخذ من الألوان الطبيعية المختلفة بحظ . وإذا كان حظ غيره أوفر من حظه فى بعض المعانى الطبيعية السامية ، فإننا يجب أن نذكر البيئة العربية بمقوماتها المختلفة ؛ والفرق بين القرن الرابع الميلادى ، وما تلاه إلى القرن الثالث عشر

عند العرب ، وبين نهاية القرن الثامن عشر عند الأوروبيين ؛ وأن نذكر التراث اليونانى واللاتينى الذى ورثه الغربيون فى الشعر ، والحركات الفلسفية والاجتماعية والسياسية التى مهدت للحركة «الرومانسية» ، والأدب القصصى وما يؤدى إليه من سعة الخيال الشعرى ، والتنسيق فى الأداء ، والتأليف بين الجزئيات – مما حرم منه شعراء العربية . وإذا ذكرنا كل هذا فإنه يحق لنا أن نقدر أعظم التقدير حظ العرب من شعر الطبيعة ، وأن نفخر بما تهيأ لهم من المعانى التى تقدم بها الغربيون من بعدهم بقرون طويلة ، نتيجةً لحركات فلسفية ونقدية وأدبية واجتماعية عظمى ، ومسايرة لسنة الحياة فى تطورها وتقدمها نحو الكمال .

(د. سيد نوفل)